لِقَاءُ العَشْرِ الأَوَاخِرِ
بِالمَسْجِدِ الحَرَامِ
(١٤٩)

آدَابُ الدَّارِسِ وَالمُدَرِّسِ

تأليف
العَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ جَمَالِ الدِّينِ القَاسِمِيِّ الدِّمَشْقِيِّ
(١٢٨٣-١٣٣٢هـ)
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

تحقيق
مُحَمَّدُ بْنُ نَاصِرٍ العَجَمِيُّ

أَسْهَمَ بِطَبْعِهِ بَعْضُ أَهْلِ الخَيْرِ مِنَ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَمُحِبِّيهِمْ

دَارُ البَشَائِرِ الإِسْلَامِيَّةِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٧٠٤٩٦٣/٠٠٩٦١١ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ،

فقد زارني في الدار القاسمية الأخ الكريم والصديق العزيز محقق كتب الجد محمد جمال الدين القاسمي - رحمه الله تعالى - وناشرها في ثوب قشيب ، جزاه المولى تعالى عن الجد وأسرته القاسمية كل خير ، ألا وهو الأستاذ المحب الشيخ محمد بن ناصر العجمي حفظه الله.

وشرفني بصحبة فتنه الأخ الكريم الأستاذ راشد الهاجري ، وقرة عينه الشاب والفتى النابه شافي ، سلمه المولى تعالى وآله .

وكان قد قرأ عليّ من قبل أول وآخر تفسير الجد "محاسن التأويل" الذي قرأته على أستاذ تلامذ الجد وقريبه أستاذي الجليل الشيخ حامد التقي رحمه الله تعالى .

كما قرأ علي "رسالة الدارس والمدرّس" للجد رحمه الله عصر الثلاثاء لثمان عشر خلون من صفر الخير عام ١٤٣١ هجرية في الدار القاسمية الكائنة بحي المهاجرين بسفح جبل قاسيون المطل على دمشق الفيحاء المحروسة

محمد سعيد القاسمي

محمد سعيد القاسمي

بسم الله الرحمن الرحيم

لِلَّهِ حَمْدِي وإِلَيْهِ أَسْتَنِدْ وَمَا يَنُوبُ فَعَلَيْهِ أَعْتَمِدْ

ثُمَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدِ خَيْرُ صَلَاةٍ وَسَلَامٍ سَرْمَدِ

أما بعد:

فإنَّ مِن أهمِّ ما يُبادِرُ به اللَّبيبُ شَرْخَ شبابِهِ، ويُدْئِبُ نفسَهُ في تحصيلِهِ واكتسابِهِ: حُسْنَ الأدبِ، الذي شَهِدَ الشرْعُ والعَقْلُ بفضلِهِ، واتَّفقتِ الآراءُ والأَلْسِنَةُ علىٰ شُكْرِ ومحبَّةِ أهلِهِ.

وإنَّ أحقَّ الناسِ بهذه الخَصْلةِ الجميلةِ، وأَوْلاهم بحِيَازة هذه المَرْتبةِ الجَليلةِ: أهلُ العلم؛ الذين حلُّوا به ذِرْوةَ المجدِ والسَّناءِ، وأحرزوا به قَصَباتِ السَّبْقِ إلىٰ وِراثةِ الأنبياءِ؛ لعِلْمهم بمكارمِ أخلاقِ النبي ﷺ وآدابِهِ، وحُسْنِ سيرة الأئمةِ الأطهارِ مِنْ أهلِ بيته وأصحابِهِ، وبما كانَ عليه أئمةُ علماءِ السَّلفِ، واقتدىٰ بهديهم فيه مشايخُ من خلف[1].

---

(١) من مطلع «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص٢٧).

وبين يديك الحث على هذه الخصال الكريمة، والرسوم الأصيلة في عقد صغير المبنى، جميل المعنى، يشتمل على نُخب من آداب العالم والمتعلِّم جرَّدها واختارها أحد علمائنا الأكابر الذين اعتنوا بالتدريس وآدابه والتصنيف في شتَّى أبوابه؛ وقد كان هذا ديدنه من مطلع حياته إلى نهاية عمره، ألا وهو العلامة محمد جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى.

وكان في هذه الرسالة مُقتبساً وناسجاً ما خطَّتْه يراعة من مشى على طريقته في العلم تصنيفاً وطلاباً، ألا وهو الإمام محيي الدين النَّواوي الدِّمشقي؛ فاختصر من مقدمة «المجموع» له عيون آداب العالم والمتعلم التي ساق فيها جُملًا من الآداب كانت حلية لأئمتنا الأبرار، وسادتنا الأخيار.

ولقد كان من شأن علامتنا القاسمي في عنايته ومحبته لهذه المقدمة أنه اختصرها مرَّتين:

الأولى: كانت مطولة بعنوان: «آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي» وكتب عليها: «تجريد الفقير محمد جمال الدِّين من مقدمة شرح المهذب للنووي»، وكان فراغه منها في شعبان سنة (١٣١٧هـ).

ثُمَّ راجعها مرة أخرى في أوائل شعبان من سنة (١٣١٨هـ)، ونشرها بنحو ثلثها في مجلة المقتبس، ولعله راعى في ذلك أن المجلة لا ترغب في الإطالة؛ فاقتصر على آداب العالم والمتعلم ـ وهي التي بين يديك في هذه الورقات النيرات ـ؛ وكان نشره لها في مجلَّة المقتبس الدِّمشقية التي أسَّسها صديقه الأديب العلَّامة محمد كرد علي؛

في المجلد السابع، الجزء الرابع؛ سنة (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م)، من (ص٢٨٣ ـ ٢٩٣).

وقد أحببت إحياء هذه الرسالة ـ التي هي في شكل مقالة ـ تذكرة لي ـ خويدم العلم وأهله ـ ولطلبة العلم الذين عاشوا في محرابه، وتقدمة لشيوخنا ليذكِّروا بها طلابهم وتلاميذهم.

*ولقد كان لأَئِمَّة هذا الدِّين من حملة العلم عناية بالغة بآداب العالم والمتعلم، سواء أكان ذلك بتصنيف مستقل أم في مطالع مؤلفاتهم وأحياناً في أواخرها؛ تذكيراً بخطورة وأهمية هذه الآداب.

* فمن ذلك:

ـ أن الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ قد جعل في أوائل «صحيحه» كتاباً خاصًّا بالعلم، حاوياً لفضله وآدابه في أبواب هي الغاية في دقيق الفهم، وحسن المقصد.

* ومن ذلك ـ إفراداً لهذا الباب المتضمن لأمثل الأخلاق والآداب ـ:

ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، لحافظ المشرق الخطيب البغدادي.

ـ وجامع بيان العلم وفضله، لحافظ المغرب يوسف بن عبد البر المغربي.

ـ والحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، لأبي الهلال العسكري.

ـ وتذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لبدر الدين ابن جماعة الكناني.

ـ والدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد، لبدر الدين الغزي الدِّمشقي.

ـ ومختصره: المعيد في أدب المفيد والمستفيد، لتلميذه عبد الباسط العلموي.

ـ وأدب الطلب ومنتهى الأرب، لعالم اليمن محمد بن علي الشوكاني.

*** وفي مجال أهل الحديث خصوصاً ـ ويدخل فيه أيضاً كتاب الخطيب السابق ـ:**

ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للقاضي الإمام الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي.

ـ وأدب الإملاء والاستملاء، لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني.

*** كما أن كتب مصطلح الحديث المتقدم منها والمتأخر تخص ذلك مُعَنوناً** بـ «آداب الشيخ المحدِّث عند إرادة الرِّواية...».

وفي مطلع ذلك يقول ناظمهم[1]:

وصَحِّحِ النيَّة في التحديثِ واحْرِصْ على نَشْرِكَ للحديثِ

---

(١) «ألفية العراقي في علوم الحديث» (ص١٥٤).

وأمَّا آداب طالب الحديث، فيقول من مشى على منوال الماضي[1]:

وصَحِّحِ النِّيَّةَ ثُمَّ استعمِلِ مَكَارِمَ الأخْلاقِ ثُمَّ حَصِّلِ
مِنْ أَهْلِ مِصْرِكَ العَلِيَّ فالعَلى ثُمَّ البِلادَ ٱرْحَلْ ولا تَسَهَّلِ

والتصنيف في هذا الباب حافل يصعب حصره وتدوينه في هذه العجالة.

وهذه نبذة وجيزة وكلمات يسيرة حول العلَّامة القاسمي الدِّمشقي رحمه الله تعالى:

❑❑❑

(١) «ألفية السيوطي في علم الحديث» (ص١٨٧ ـ بشرح أحمد شاكر).

العلامة القاسمي
وليد القرون المشرقة
وابن العائلة العلمية العريقة

عُرفَتْ دمشق الشام ـ حماها الله وسائر بلاد الإسلام ـ ببيوتٍ علميَّةٍ عريقة شهيرة رفيعة، قد أنجبت جمعاً من العلماء الأجلاء، والأُدباء الفضلاء.

وقد تسلسل في كثير من هذه البيوت أهل العلم والفضل، فمن تلك الأسر التي لا زال حفدتها في عصرنا: آل الخطيب الذين توارث بعض علمائهم الخطابة في الجامع الأموي، وبنو الكُزبري الذين اشتهروا بعلم الحديث النبوي وعلوِّ السَّنَدِ فيه، وتدريسهم له تحت قُبَّة النَّسْرِ بالجامع الأموي، وآل الأُسطواني الذين تولى غير واحد منهم القضاء بدمشق، وأسرةُ بني عابدين المعروفون بالفقه الحنفي، وآل الشطي الحنابلة المتميزون بمعرفة الفقه الحنبلي وعلم الفرائض، وبنو العطار المشهورون بالعلم، وبنو البيطار الذين خرج منهم أجلة من العلماء والشُّعراء، وآل الحلواني الذين كانوا مشايخ القُراء، وغيرهم من تلك الأُسر العلمية العريقة بدمشق التي بقي بعض سلائلها الدَّالة على أسلافها.

وإن من تلك البيوت الأصيلة الجليلة في العلم: **السَّادة آل القاسمي؛ فهم بيت علمٍ وأدب، ومقامٍ علميٍّ رفيع**، مع ما حباهم الله به من شرف النَّسَبِ، فهم كما قال العلَّامة الشيخ عبد الحفيظ الفاسي المغربي: «**بيت شرف وعلم، ومجد وفضل؛ تعدد فيهم العُلماء والصُّلحاء والأُدباء**».

ولم يكتفوا بهذا النسب الشريف؛ وإنما جمعوا إليه العلم والنبل.

وواسطة العقد في هذا البيت، وقلادة النَّحْرِ وبيتُ القصيد فيه، هو **الإمام العلَّامة محمد جمال الدِّين القاسمي**، الذي بَزَّ أقرانه، وفاق أبناء عصره وزمانه، أحد كبار حملة العلم والإصلاح في القرن الماضي.

مولد العلَّامة القاسمي:

ولد العلَّامة القاسمي في موطنه ومنبت آبائه ومستقرّ أجداده دمشق في الثامن من جمادى الأولى سنة (١٢٨٣هـ).

وقد نشأ في بيت العلم والتقوى ـ كما أسلفنا ـ، **فقد كان جده** الشيخ قاسم من فقهاء الشام وصلحائها الكرام. **وكان أبوه** الشيخ محمد سعيد عالماً أديباً.

ففي هذا الجو ـ الذي كان محفوفاً بحرمة الدِّين وجلاله، وهُداه وسلطانه، ورقة الأدب وتهذيبه وصفائه ـ فتح العلامة جمال الدِّين عينيه على هذا النور والفضل، وأخذ من علماء بلده كالشيخ أحمد الحلواني، والشيخ سليم العطار، والشيخ بكري العطار، وغيرهم من أعلام ذاك العصر.

كما كان لتوجيهات والده الأثر البالغ، وفي ذلك يقول: «وكان سيدي الإمام الوالد رضي الله عنه حينما يراني مواظباً على دروسي ومطالعتي يزداد في دعواته الصالحة. وينظم في رضائه عني أبياتاً يشوقني في دوام الاجتهاد، وأعظم شيء عندي من جليل دعواته قوله لي في أغلب الأوقات: **الله يرضى عليك كما رضي على الصدِّيق**، وفي جُملٍ غيرها متنوعة، كافأه المولى عني بخير الجزاء آمين».

بره بوالده:

وقد كان الشيخ جمال الدين القاسمي باراً بوالده، يبادله العطف والحنان والمحبة، وكان لا يخاطبه إلَّا بقوله: «سيدي».

وقد نقل طلابه عنه أنه كان يقول: «**إنني في حياتي لم أخبر والدي بموت صديق له أو شخص يقاربه في السن خشية انزعاجه**».

ومن تمام بره بوالده أنه بعد وفاته ألَّف في ترجمته كتاباً عنه بعنوان: «**بيت القصيد في ترجمة الإمام الوالد السعيد**».

تولَّى الإمامة في جامع العنابة في محلة باب السريجة من أحياء دمشق المحروسة، ولما توفي والده سنة (١٣١٧هـ) خلفه في جامع السِّنانية بباب الجابية.

وحصلت له حادثة في سنة (١٣١٣هـ) تسمى بحادثة المجتهدين، اتُّهم فيها بأنه ينوي تأسيس مذهب جديد في الدين؛ فقبضت عليه الحكومة وحقِّقت معه، وردَّ التهمة فأُخلي سبيله.

قام بالتدريس في جامعه لكتب السنَّة والوعظ العام، وكان وقته مشغولًا كله، يغلب عليه الجد، ويبتعد عن الهزل، لا تأخذه في الله لومة لائم.

يقول عنه الشيخ محمد رشيد رضا: «كان من أكمل من رأيت في أخلاقه وآدابه وشمائله، كان أبيض اللون، نحيف الجسم، ربعة القد، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، غضيض الطرف، كثير الإطراق، خافض الصوت، خفيف الروح، دائم التبسم. وكان تقيًّا، ناسكاً، واسع الحلم، سليم القلب، نزيه النفس واللسان والقلم، برًّا بالأهل، وفيًّا للإخوان، يأخذ مما صفا ويدع ما كدر، عائلًا عفيفاً قانعاً».

جمال الدِّين والدُّنيا:

ويقول عنه عصريه وبلديه محمد كردعلي: «رزق الصديق العلَّامة صفات إذا جُمع بعضها لغيره عُدَّ قريعَ دهره، ووحيد عصره؛ فقد كان طلق اللسان، طلق المحيا، وافر المادة، وافر العقل، سريع الخاطر، سريع الكتابة، جميل العهد، جميل الود.

وكان ـ بلا جدال ـ جمال الدِّين والدُّنيا، ما اجتمع به أحد إلَّا وتمنى لو طال بحديثه استمتاعه ليزيد في الأخذ عنه والتشبُّع بفضائله والاغتراف من بحر علمه».

وقال أيضاً: «تذرَّع الفقيد بعامة ذرائع النفع لهذه الأمة؛ فكان إماماً في تآليفه الوفيرة، إماماً في دروسه الكثيرة، إماماً في محرابه ومنبره ومصلَّاه، رأساً في مضاء العزيمة، رأساً في العفَّة ـ وهذه الصفة

هي السر الأعظم الذي دار عليه محور نبوغه ـ؛ لأنه لو صانع طمعاً في حطام الدُّنيا لما خرج عن صفوف أهل محيطه، ولكن عالماً وسطاً، يشتغل بالتافهات ويعيش في تقية ويموت كذلك».

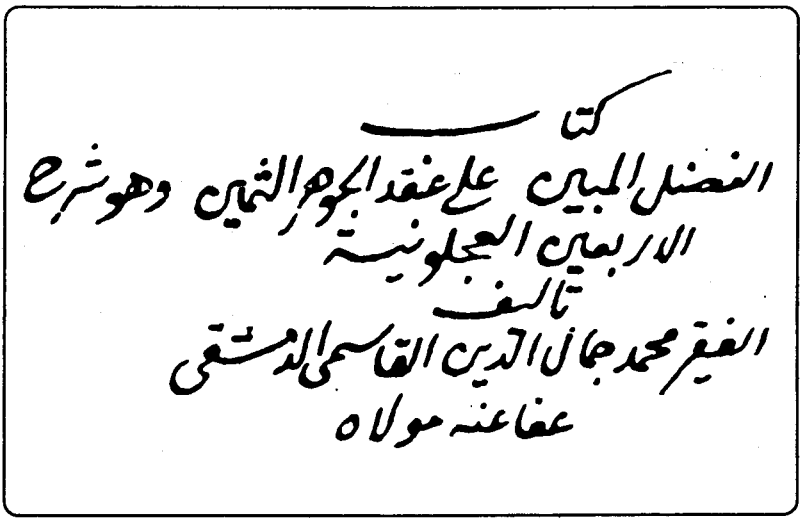

مضرب المثل في استغلال الوقت:

وأمَّا همَّته العالية واستغلاله لأوقاته، فقد كان مضرب المثل في ذلك.

يقول عن نفسه: «وقد اتفق لي بحمده تعالى قراءة «صحيح مسلم» بتمامه روايةً ودرايةً في أربعين يوماً، وقراءة «سنن ابن ماجه» كذلك في واحد وعشرين يوماً، وقراءة «الموطإ» كذلك في تسعة عشر يوماً، وقراءة «تقريب التهذيب» في تصحيح سهو القلم فيه وتحشيته في نحو عشرة أيام. . **فدع عنك الكسل، واحرص على عزيز وقتك بدرس العلم وإحسان العمل**».

وكتب مرة في مذكراته: «الكسل من النقائص التي تولد الخسائس والشرور، ويدل على ضعف في إدراك صاحبها وحطة في نفسه».

وقال كذلك: «الكسل والخمول وحشو الذهن بالخرافات هي طريق الشر».

وهذا الجد والدأب عنده كان يتحلى به منذ شبابه الأول، حينما كان طالباً يسعى إلى الشيوخ، لا ينقطع عن حلقاتهم المنتظمة بحال من الأحوال؛ حضر درس شيخه سليم العطار في يوم شديد البرد كثير الثلج، لم يمنعه ضعف بنيته ولا تجشم المتاعب، فلما وافى الحلقة لم يجد عنده من الطلاب أحداً، فقال أستاذه: إنني أنتظرك وحدك؛ لأنني عرفت أنه لن يأتي في هذا اليوم غيرك.

وكم كان يعجب من الناس الذين يمر بهم جالسين في المقاهي عند باب الجابية، ويقول: «ما أرخص وقت هؤلاء عليهم، فيا ليتهم يعطونني شيئاً من أوقاتهم».

وبالمقابل فقد قسَّم أوقاته خلال اليوم تقسيماً حرص فيه ألا يضيع منه شيء في غير فائدة؛ فجعل وقت الفجر للدروس، وضحوة النهار للتأليف والكتابة، وبعد الظهر للقيلولة اليسيرة جداً كحسوة الطائر كما أخبرني بذلك عنه أحفاده، ووقت العصر للتدريس، وما بين العشاءين لوعظ العامة، وخصص ما بعد العشاء للتفسير.

وكان يقول عن نفسه: «لا أرى والله الصحة والنشاط إلَّا فيما أنا عليه، وإذا تركت القلم أو الكتاب فأراني كالسمك إذا فارق الماء...».

كتاب

لقطة العجلان

تأليف

الإمام بدر الدين محمد الزركشي

وعليه

شرح لجامعه جمال الدين القاسمي الدمشقي

وقد فصل بين الأصل والشرح بجدول

هذا، وأراني مضطراً إلى كبح جماح القلم بعد أن أوشك على الاسترسال في سرد الوشي من سيرة هذا الإمام العطرة، وأختم بما يلي:

مؤلفاته:

يقول أمير البيان شكيب أرسلان: «وإني لأوصي جميع الناشئة الإسلامية التي تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها؛ ألَّا تقدِّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم جمال الدين القاسمي الذي قسم الله له من اكتناه أسرار الشرع ما لم يقسمه إلَّا لكبار الأئمة وأحبار الأمة، والله تعالى ينفع المسلمين بآثاره. ويهديهم في ظلمات هذه الحياة بزاخر أنواره».

ومن مؤلفاته: تفسيره الكبير «**محاسن التأويل**»، وقد قضى في تأليفه ستة عشر عاماً.

يقول العلَّامة الشيخ مصطفى الزرقا لابن الشيخ القاسمي الأستاذ ظافر: «إن قراءته تحتاج إلى عمر كامل، فكيف أَلَّفه ولم يبلغ الخمسين من العمر؟».

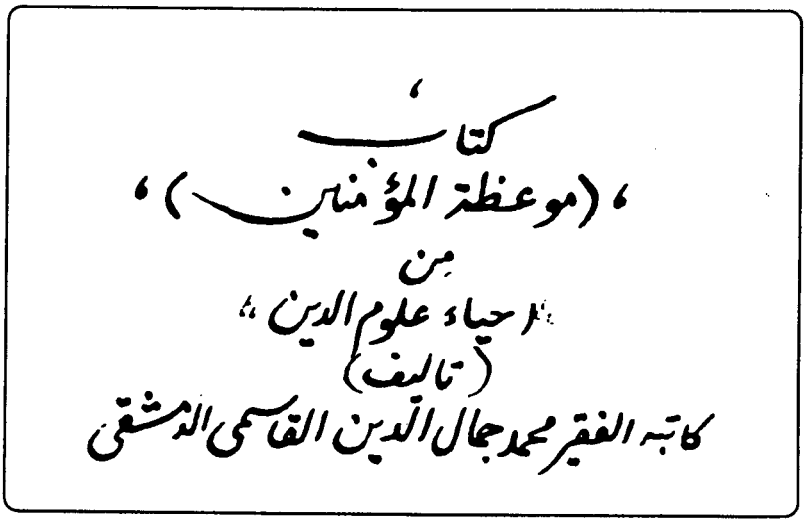

هذا ومن يعلم سيرة الشيخ القاسمي يعرف أنه كان يستثمر كل دقيقة تمرّ به، حتى إنه ليكتب في كل مكان يمكن أن يكتب فيه؛ فإنه كان يكتب في القطار وفي البيت، وفي العربة، وفي النزهات.

وعليه فلا يستغرب أن تربو مؤلفاته على المائة على قصر عمره، فإنه توفي سنة (١٣٣٢هـ) ولم يبلغ الخمسين رحمه الله تعالى.

من درر كلامه:

من درر كلامه وجميل توجيهاته قوله:

ـ «الوقت من أسمى مواهب الخالق التي لا يمكن استعادتها متى فاتت، فلا تتصرف فيه بما يؤسفك على فواته. والوقت أمانة عندك، تُسأل عن التصرف فيه».

ـ «من يضيِّع وقته إنما يفقد أكثر مما يضيِّع من دراهمه».

ـ «من هم أقل منك معرفة وأدنى درجة ينبغي أن لا تكثر معهم اللجاجة، ولا تخالطهم إلَّا بقدر الحاجة، فإن المخالطة تؤثر، والطبع سراق، والنظر إلى الصور يطبع في الناظر ما ينعكس عليه منها، فالناظر إلى المحزون يحزن، وإلى المسرور يسر. وهكذا».

ـ «الذكاء كالشرارة الكامنة في الزِّناد، لا تظهر إلَّا بالقدح، فإذا لم تحتك الأفكار بالعلوم مات ذلك النشاط والذكاء في مكامنه وانزوى في زوايا الصدور».

ـ «العاقل لا ينتصر لرأيه الذاتي ولا يصر عليه، بل يعتبره خاطراً سنح له، فربما كان صواباً أو خطأً».

ـ «الفتور في المجاهدة يؤدي إلى تقوية القوى الحيوانية وتضعيف القوى الروحانية».

ـ «الأولاد منحة من الله تعالى، وزينة في الحياة، ولا يشعر بلذة العيش معهم إلَّا من يحبهم من الآباء، وما يبديه الأطفال من الألعاب، والغضب، وبعض الطلبات، وفطري الكلام، أسباب سرور وتسلية لمن يسرَّ بهم، ويحب الاستئناس بهم. ومن لا يحب زوجته وأولاده يكن كمن يطعم حيواناً مفترساً، يجلب على نفسه المصائب، ولا يرتاح باله، ولا يبلغ السعادة أبداً».

ـ «إن كتاباً يطبع خير من ألف داعية وخطيب؛ لأن الكتاب يقرؤه الموافق والمخالف».

* * *

*** وأخيراً، فإن راقم هذه الكلمات قد تشرَّف بخدمة هذا النابغة من نوابغ هذه الأمة وعلمائها البررة بما يلي:**

١ ـ «آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل».

٢ ـ «تعليق لطيف على آخر حديث في رياض الصالحين»، لجدِّه العلَّامة قاسم بن محمد القاسمي.

٣ ـ «نبذة لطيفة ونصيحة شريفة»، لخال والده الشيخ حسن بن أحمد جبينة الدسوقي الشامي.

٤ ـ «الوعظ المطلوب من قوت القلوب»، لجمال الدِّين القاسمي.

٥ ـ «الرسائل المتبادلة بين القاسمي والآلوسي».

٦ ـ «سر الاستغفار عقب الصلوات»، لجمال الدِّين القاسمي.

٧ ـ «ثمرة التسارع إلى الحب في الله وترك التقاطع» له أيضاً.

٨ ـ «رحلتي إلى المدينة المنورة»، له أيضاً.

٩ ـ «إجازته لمحمد بن جعفر الكتاني وعبد الحي الكتاني وأحمد شاكر»، ملحقة بالكتاب السابق.

١٠ ـ «وليد القرون المشرقة إمام الشام في عصره جمال الدِّين القاسمي؛ سيرته الذاتية بقلمه، وشيوخه وإجازتهم له وتلاميذه وإجازته».

أسأل الله عوناً منه وسداداً في القول والعمل في المضي في إكمال المشوار مع العلَّامة جمال الدِّين القاسمي الدمشقي رحمه الله تعالى، وأن يجمعنا به ومن قرأ هذه السطور في مقعد صدق عند مليك مقتدر، آمين.

وكتب

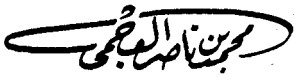

في آخر ذي الحجة سنة (١٤٣٠هـ)

لِقَاءُ العَشْرِ الأَوَاخِرِ
بِالمَسْجِدِ الحَرَامِ
(١٤٩)

آدَابُ الدَّارِسِ وَالمُدَرِّسِ

تأليفُ
العَلَّامَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ جَمَالِ الدِّينِ القَاسِمِيِّ الدِّمَشْقِيِّ
(١٢٨٣-١٣٣٢هـ)
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

تحقيق
مُحَمَّدِ بْنِ نَاصِرٍ العَجَمِيِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيدنا محمد خاتم النبيِّين، وعلى آله وصحبه في كل وقت وحين[1].

أداب الدَّارس والمُدرِّس

من استقرأَ ما كتب في هذا الباب الواسع قديماً وحديثاً ير عدداً من المؤلفات والمقالات لا يأتي عليها الحصر[2]، ولا يخفى أن لروح كُلِّ عَصْرٍ مَظْهراً فيما كتب في واجباته ومطالبِهِ، وكثير منها تبدلَ بغيرها لمسيس الحاجةِ إلى ما هو أهم منها أو اختلاف العادات في أطوارها وشؤونها.

إلَّا أن ما يتقاضاه العلم من آداب القائمين عليه دَرْساً وتدريساً تَتلاقى أُصوله مع كل زمان ومكان، لذا رأيت من المهم نقل أبدع ما كُتِبَ في هذا الباب؛ إذ الأُمة لا تبلغ أَوْجَ المجدِ إلَّا بالعلم، ولا علم إلَّا بصلاح الدارسِ والمُدَرِّس، والعالم والمتعلم؛ إذ هم القائمون

---

(١) هذه خطبة رسالة القاسمي الأخرىٰ «آداب العالم والمتعلم والمفتي والمستفتي» المجردة من مقدمة المجموع للنووي.

(٢) سبق الإشارة في المقدمة إلى طرف منها.

على تهذيب الملَكاتِ وإرشاد العقول، والهادون إلى صراط الحق وميزان العدل والصدق.

وقد رأيت من أحسن ما جُمِعَ في مقاصد هذا البحث الجليل ما أَورده محيي الدِّين النووي ـ أحد أئمة الرِّوايةِ وَالدِّراية المشاهير ـ في مقدمة «شرح المهذب»، فآثرت عنه خلاصة ما أثره عن أساطين الحكمة المُتقدمين، وجعلته مقالة مُوجزة.

❑❑❑

أحكام درس العلوم الشرعية

أنواع العلوم الشرعية لا تعد، وفي أحكامها ثلاثة أقسام:

القسم الأول: فرض العين منها:

ويقال له الضروري، وهو درس المكلف ما تصح به عقيدته وتجزىء معه عبادته، وتنفذ عقوده ومعاملته، وما لا غنىٰ له عنه مما يتناوله ويستعمله.

ويدخلُ في ذلك درس أمراض القلب؛ كالحسد، والعُجب، والبُخل، وأمثالها من المهلكات، فقد قال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين[1].

القسم الثاني: فرض الكفاية:

ويقال له الحاجي، وهو درس ما لا بد للناس منه في إقامة دينهم؛ كحفظ القرآن، والأحاديث وعلومهما، والأصول، والفقه، والنحو، واللغة، ومعرفة رواة الحديث، والإجماع، والخلاف.

---

(١) «إحياء علوم الدِّين» (١/ ١٤ ـ ط. البابي الحلبي).

ومنه: ما يحتاج إليه في قِوام أمر الدُّنْيا؛ كالطب، والحساب، والهندسة.

ومنه: تعلُّم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدُّنيا؛ كالزراعة ونحوها.

القسم الثالث: النفل:

ويقال له التحسيني، وهو كالتبحر في أصول الأدلة، والإمعان فيما وراء القَدْر الذي يحصل به فرض الكفاية، والتوسع في فنون الأدب والمعقول.

❑❑❑

آداب المدرِّس

أهم ما يطلب منه أن يعتني به: أدبه في نفسه، وأدبه في درسه.

القسم الأول: أدبه في نفسه:

وذلك في أمور:

منها: أن يقصد بتعليمه وجه الحَقِّ سبحانه وتعالى لا توسلًا إلى غرض دنيوي ـ كمالٍ، أو جاهٍ، أو شهرةٍ، أو تكثير المختلفين إليه، أو نحو ذلك ـ كما كان عليه سلف الأمة.

فقد قال الشافعي رحمه الله: وددت أن الخلقَ تعلموا هذا العلم عَلَى أن لا يُنْسَبَ إليَّ حرف منه.

وقال أيضاً: ما ناظرتُ أحداً قط على الغلبة، ووددتُ إذا ناظرت أحداً أن يَظهر الحقُّ عَلَى يده[1].

ومنها: أن يتخلقَ بالمحاسن التي ورد الشَّرع بها وحثَّ عليها، والخلال الحميدة، والشيم المرضية التي أرشد إليها؛ كالحلم، والصبر، والسَّخاء، والجود، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة، وملازمة الورع، والوقار، والتَّواضع، والتنظف في البدن واللبسة.

---

(١) «المجموع شرح المهذب» للنووي (١/ ٥٠).

ومنها: الحذر من الحسد والرِّياء والإعجاب، وتزكية النفس، وازدراء الناس، وإن كانوا دونه بدرجات.

ومنها: أنَّه إذا ترخص في أمر جائز وخِيفَ أن يظن خلافه: أن يخبر أصحابه ـ ومن يراه ـ حقيقة ذلك الفعل؛ لينتفعوا ولئلا يأثموا بظنهم السَّيِّئ.

القسم الثاني: أدبه في درسه:

* وذلك أن لا يزال مجتهداً في الاشتغال بالعلم، قراءةً ومطالعةً، وتعليماً ومُباحَثَةً، ومذاكرةً وتصنيفاً.

* وأن لا يستنكف من التَّعلُّم ممن هو دونه في سنٍّ أو نسبٍ أو شُهرةٍ أو دينٍ أو في علم آخر، بل يحرصُ عَلَى الفائدة ممن كانت عنده وإن كان دونه في جميع هذا.

* وأن لا يستحي من السؤال عما لم يعلم؛ روي عن أمير المؤمنين عمر أنَّه قال: مَنْ رَقَّ وجْهُهُ رَقَّ عِلْمُهُ[1].

وروى البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت: نِعْمَ النِّساءُ نِسَاءُ الأَنصارِ، لم يَمْنَعْهُنَّ الحياءُ أن يتفقَّهْنَ في الدِّين[2].

* وأن لا يمنعه ارتفاع منصبه وشهرته من استفادة ما لا يعرفه، فقد كان كثير من السَّلف يستفيد من تلامذته ما ليس عنده.

---

(١) أخرجه الدارمي في «سننه» (١/ ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ٢٢٨ ـ فتح الباري) تعليقاً مجزوماً به، ووصله مسلم (١/ ٢٦١).

قال الإمام النووي: قد ثبت في «الصحيح» رواية جماعة من الصحابة عن التابعين، وروى جماعات من التابعين عن تابعي التابعين، وهذا عمرو بن شعيب ليس تابعيًّا، وروى عنه أكثر من سبعين من التابعين[1].

وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البيِّنة: ١] عَلَى أُبيّ بن كعب؛ وقال: «**أَمَرني اللهُ أَنْ أَقْرَأَ عليك**»[2].

ويسمَّى هذا النوع: رواية الأكابر عن الأصاغر.

* وأن تكون ملازمته الاشتغال بالعلم هي مطلوبه، ورأس ماله؛ فلا يشتغل بغيره، فإن اضطر إلى غيره في وقتٍ فعل ذلك الغير بعد تحصيل وظيفته من العلم.

❑❑❑

---

(١) «المجموع» (١/ ٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (١/ ٥٥٠) من حديث أنس.

أدبُهُ في تصنيفه

قال النووي:

ينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تَأَهَّلَ له؛ فبه يطلع عَلَى حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه؛ لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمُطالعة، والتحقيق والمراجعة، والاطلاع عَلَى مختلف كلام الأئمة ومُتَّفِقِه، وواضِحه من مشكلِهِ، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد.

وليحذر كُلَّ الحذرِ أن يشرعَ في تصنيف ما لم يَتَأهل له؛ فإن ذلك يضرهُ في دينه وعلمه وعرضه.

وليحذر أيضاً: من إخراج تصنيفه من يده إلَّا بعد تهذيبه، وترداد نظره فيه وتكريره.

وليحرص على إيضاح العبارة وإيجازها، فلا يوضح إيضاحاً ينتهي إلى الركاكةِ، ولا يُوجز إيجازاً يُفضي إلى المَحْقِ والاستغلاق.

وينبغي أن يكون اعتناؤه من التصنيف بِما لم يُسبق إليه أكثر.

والمراد بهذا أن لا يكون هناك مصنف يغني عن مصنفه في جميع أساليبه، فإن أغنى عن بعضها فليصنف من جنسه ما يزيد زيادات يحتفل بها، مع ضم ما فاته من الأساليب.

وليكن تصنيفه فيما يعم الانتفاع به ويكثر الاحتياج إليه[1].

❑❑❑

(١) «المجموع» (١/ ٥٣).

آداب تعليمه

التعليم هو الأصل الذي به قِوام الدِّين والدُّنيا وبه يُؤْمَنُ امِّحاق العلم، وفي التنزيل الحكيم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال النبي ﷺ: «**لِيُبَلِّغ الشَّاهد منكم الغائب**»[1].

يجب على المعلم أن يقصد بتعليمه وجه الله تعالى، وأن لا يجعله وسيلة إلى غرض دنيوي؛ لأن ما كان خالصاً كان مستمراً غضًّا في كل حين، وما كان لغرض زال عند الظفر به، ففات ما قصد له.

ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النِّيَّة؛ فإنه يرجى له حسن النية.

وربما عسر في كثير من المبتدئين تصحيح النِّيَّة، فالامتناع من تعليمهم يؤدِّي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى له تصحيحها إذا أَنِسَ بالعلم.

وقد قال بعض السلف: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلَّا لله.

معناه: كانت عاقبته أن صار لله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٥)، ومسلم (٣/١٣٠٦) من حديث أبي بكرة.

وينبغي أن يؤدب المتعلم عَلَى التدريج بالآداب السَّنية، والشيم المرضية، ويحرِّض عَلَى الإخلاص والصدق وحُسْنِ النِّيَّة.

وينبغي أن يرغبه في العلم ويذكره بفضائله وفضائل العلماء.

وينبغي أن يحنوَ عليه، ويعتنيَ بمصالحه؛ كاعتنائه بمصالح نفسه وولده، ويُجريه مجرى ولده ـ في الشفقة عليه، والاهتمام بمصالحه ـ، ويعذره في سوءِ أَدب وجفوة تعرض معه في بعض الأحيان؛ فإن الإنسان معرض للنقائص.

وينبغي أن يكون سمحاً ببذل ما حصَّله من العلم، سهلًا على مبتغيه، مُتلطفاً في إفادته طالبيه، مع رفق ونصيحة وإرشاد إلى المُهمات، وتحريض عَلَى حفظ ما يبذله لهم من الفوائد.

ولا يدخر عنهم من أنواع العلم شيئاً يحتاجون إليه إذا كان الطالب أهلًا لذلك.

ولا يلقي إليه شيئاً لم يتأهل له لئلا يفسد عليه حاله، فلو سأَله المتعلم عن ذلك لم يجبه، ويُعَرِّفه أن منعه ليس شُحًّا بل شَفقةً ولُطفاً.

وينبغي أن لا يتعظم عَلَى المتعلمين، بل يلين لهم، ويتواضع، وفي التنزيل الكريم: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وينبغي أن يكون حريصاً على تعليمهم مُهتمًّا به، مُؤثراً له على حوائج نفسه، ويرحب بهم عند إقبالهم إليه، ويُظهر لهم البِشْر وطلاقة الوجه، ويُحسن إليهم بعلمه وماله وجاهه، ولا يخاطب الفاضل منهم باسمه بل بكنيته.

وينبغي أن يتفقدهم ويسأَل عمن غاب منهم.

وينبغي أن يكون باذلًا وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصاً عَلَى هدايتهم.

ويُفْهِمُ كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحتمله ولا يقصر به عما يحتمله بلا مشقة، ويخاطب كل واحد عَلَى قدر درجته وبحسب فهمه وهمَّته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهماً مُحققاً، ويوضح العبارة لغيره ويُكررها لمن لا يحفظها إلَّا بتكرار.

ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة من غير دليل لمن ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له، ويذكر الدلائل لمحتملها.

ويذكر ما يَرِدُ عَلَى المسألة وجوابه إن أمكنه.

ويُبين الدليل الضعيف لئلا يغتر به، فيقول: استدلوا بكذا وهو ضعيف لكذا.

ويبيِّن الدليل المعتمد؛ ليعتمد.

وينبههم: عَلَى غلط من غلط فيها من المصنفين، فيقول مثلًا: هذا هو الصواب، وأما ما ذكره فلانٌ فغلط أو فضعيف، قاصداً النصيحة لئلا يغتر به، لا لتنقص القائل، فإن الانتقاد إنما يكون للقول لا لقائله.

ويبين له جُمَلًا من أسماء المشهورين من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فمن بعدهم من الأئمة والمشاهير وأنسابهم، وكُناهم، وأعصارهم، وطرف حكاياتهم، ونوادرهم، وضبط المُشْكِلِ من أَنسابهم وصفاتهم، وتمييز المشتبه من ذلك، وجُمَلًا من الألفاظ اللغوية والعرفية ضبطاً لمشكلها وخفيِّ معانيها، فيقول: هي مفتوحة أو مضمومة

أو مكسورة، مخفَّفة أو مشدَّدة، مهموزة أو لا، عربية أو أعجمية أو مُعرَّبة ـ وهي التي أصلها عَجَمي، وتكلمت بها العرب ـ، مصروفة أو غيرها، مشتقة أو لا، مشتركة أم لا، مترادفة أم لا، وأن المهموز والمشدَّد يخففان أم لا، وأن فيها لُغةً أخرى أم لا.

وإذا وقعت مسألة غريبة لطيفة أوْ مما يسأل عنها في المعاياة نبَّهه عليها وعَرَّفَه حالها في كل ذلك.

ويكون تعليمه إياهم كل ذلك تدريجيًّا؛ ليجتمع لهم مع طول الزمان جُمل كثيرات.

وينبغي أن يحرضهم عَلَى الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم في أوقات محفوظاتهم، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات، فمن وجده حافظاً مُراعياً له أكرمه وأثنى عليه وأشاع ذلك، ومن وجده مقصِّراً لامه، ويعِيده له حتى يحفظه حفظاً واضحاً.

وينبغي أن ينصفهم في البحث فيعترف بفائدة يقولها بعضهم وإن كان صغيراً.

وينبغي أن يقدم في تعليمهم إذا ازدحموا: الأسبق فالأسبق، ويتحرى تفهيمهم بأيسر الطرق، ويذكره مترسلًا مبيناً واضحاً، ويكرر ما يشكل من معانيه وألفاظه حتى يفهموه، وإذا لم يكمل البيان إلَّا بالتصريح بعبارة يُستحىٰ في العادة من ذكرها؛ فليذكرها بصريح اسمها، ولا يمنعه الحياء ومراعاة الأدب من ذلك؛ فإن إيضاحها أَهم من ذلك، وإنما يستحب الكناية في مثل هذا إذا علموا المقصود منها علماً جليًّا، وعَلَى هذا التفصيل يحمل ما ورد في الأحاديث من التصريح في وقت والكناية في وقت.

ويؤخر ما ينبغي تأخيره، ويقدم ما ينبغي تقديمه، ويقف في موضع الوقف، ويصل في موضع الوصل.

ويحسن خلقه مع جلسائه، ويُوقِّرُ فاضلهم بعلم أو سن أو شرف أو صلاح، ويتلطف بالباقين.

وينبغي أن يصون يديه عن العبث، وعينيه عن تفريق النظر بلا حاجة، ويعم الحاضرين بالتفاته، ويجلس في موضع يبرز وجهه لهم.

ويقدم من دروسه أهمها؛ فيقدِّم التفسير، ثُمَّ الحديث، ثُمَّ الأصولين، ثُمَّ الأهم فالأهم.

ولا يقرأ الدرس وبه ما يزعجه؛ كمرض أو جوع أو مدافعة الحدث، أو شدة فرح أو غم.

ولا يطيل مجلسه إطالة تملهم أو تمنعهم فهم الدرس أو ضبطه.

وليكن مجلسه واسعاً.

ولا يرفع صوته زيادةً عَلَى الحاجة، ولا يخفضه خفضاً يمنع بعضهم كمال فهمه.

ويصون مجلسه من اللَّغط، والحاضرين عن سوء الأدب في المُباحثة، وإذا ظهر من أحدهم شيءٌ من مبادىء ذلك تلطف في دفعه قبل انتشاره.

ويذكرهم أن اجتماعنا ينبغي أن يكون لله تعالى فلا يليق بنا المنافسة والمشاحنة، بل سبيلنا الرِّفق والحياء واستفادة بعضنا من بعض، واجتماع قلوبنا عَلَى ظهور الحق وحصول الفائدة.

وإذا سأل سائل عن أُعجوبة فلا يسخرون منه.

وإذا سئل عن شيء لا يعرفه أو عرض في الدرس ما لا يعرفه فليقل: «لا أَعرفه»، أو «لا أتحققه»، ولا يستنكف عن ذلك، فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: يا أيُّها النَّاس، مَنْ عَلِم شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: «الله أَعلم»، فإنَّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: «الله أعلم»، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، رواه البخاري[1].

قالوا: وينبغي للعالم أن يورث أصحابه «لا أدري»؟ معناهُ: يكثر منها، ولا يضعُ ذلك من منزلته، بل يدل عَلَى وفورِ عَقْلِهِ وعِظَم محله؛ لأن المتمكن لا يضره عدم معرفته مسائل معدودة، وإنما يمتنع من «لا أدري» من قل عمله، وقصرت وضعفت تقواه؛ لأنه يخاف لقصوره أن يسقط من أعين سائليه أو سامعيه وهو جهالة منه، فإنه بإقدامه عَلَى الجواب فيما لا يعلمه يضر نفسه وغيره، وقد يبوءُ بالخزي العاجِل والإثم الآجل، وفي الحديث: «المُتَشَبِّعُ بِما لَمْ يُعْطَ كلابسِ ثَوْبَيْ زُوْرٍ»[2].

❑❑❑

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٩)، ومسلم (٣/ ١٦٨١) من حديث أسماء.

آداب الدارس «المتعلِّم»

أما آدابه في نفسه: فكآداب المُدرِّس، وقد أوضحناها.

وينبغي أن يُطهِّر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول العلم وحفظه واستثماره، وأن يقطع العلائق الشاغلة عن كمال الاجتهاد، ويرضى باليسير من القوت، ويصبر عَلَى ضيق العيش.

قال أبو حنيفة رضي الله عنه: يستعان عَلَى العلم بجمع الهَمِّ، ويستعان عَلَى حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة.

وقال الخطيب البغدادي: **يستحب** للطالب أن يكون عزباً ما أمكنه لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم[1].

وأن يتواضع للمعلم وينقاد له ويأتمر بأمره كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح.

ولا يأخذ العلم إلَّا ممن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، وكان له دُربةٌ، وخُلق جميل، وذهن صحيح، واطلاع تام.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي والسامع» للخطيب (١/ ١٠١)، وليس هذا الكلام على إطلاقه، ولكل زمان أحواله.

وينبغي أن ينظر معلِّمَهُ بعين الاحترام والرجحان على أكثر طبقته فهو أقرب إلى انتفاعه به ورسوخ ما سمعه منه في ذهنه، وقد قال الشافعي: كنت أصَّفح الورقة بين يدي مالك رحمه الله صفحاً رفيقاً؛ هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها.

وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ؛ هيبة له.

ويروى عن علي رضي الله عنه قال: من حق العالم عليك أن تسلم عَلَى القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمزن بعينك غيره، ولا تقول: «قال فلان» خلاف قوله، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تسار في مجلسه، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تشبع من طول صحبته؛ فإنما هو عليك كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيءٌ[1].

ومن آداب المتعلِّم: أن يتحرَّى رضا المعلم وإن خالف رأي نفسه، ولا يفشي له سرًّا، وأن يرد غيبته إذا سمعها، فإن عجز فارق المجلس، وأن لا يدخل عليه بغير إذْن، وإذا كان معه غيره قدم الأفضل والأسن، وأن يدخل كامل الهيبة، فارغ القلب من الشواغل، مُتطهراً مُتنظفاً بسواك، وقص ظفر وإزالة ريح كريه، ويسلم على الحاضرين بصوت يسمعهم، ويخص الشيخ بزيادة إكرام، وكذلك يسلم إذا انصرف.

---

(١) انظر هذه الأقوال في «المجموع» (١/ ٦٣).

ولا يتخطى رقاب الناس، ويجلس حيث انتهى به المجلس إلَّا أن يأذن المعلم أو الحاضرون بالتقدم والتخطي، أو يعلم من حالهم إيثار ذلك.

ولا يقيم أحداً من مجلسه فإن آثره غيره بمجلسه لم يأخذه، إلَّا أن يكون في ذلك مصلحة للحاضرين بأن يقرب من الأستاذ ويذاكره مذاكرة ينتفع الحاضرون بها.

ولا يجلس وسط الحلقة إلَّا لضرورة، ولا بين الصاحبين إلَّا برضاهما، وإذا فسح له قعد.

ويحرصُ على القرب من الأستاذ ليفهم كلامه فهماً كاملًا بلا مشقَّة، على شريطة أن لا يرتفع في المجلس على أفضل منه.

ويتأدب مع رفقته وحاضري المجلس، فإن تأدبه معهم تأدُّبٌ مع الأستاذ واحترام لمجلسه، ويقعده قعدة المتعلمين.

ولا يضحك، ولا يكثر الكلام بلا حاجة، ولا يعبث بيده ولا غيرها، ولا يلتفت بلا حاجة بل يقبل عَلَى الأستاذ مُنصتاً إليه.

ولا يسبق إلى شرح مسألة أو جواب سؤال إلَّا أن يعلم رضاه فيستدل عَلَى فضيلة المتعلم.

ولا يقرأ عَلَى أستاذه عند شغل قلبه وملله وغمه ونعاسه، ونحو ذلك مما يشق عليه أو يمنعه استيفاء الشرح.

ولا يسأله عن شيء في غير موضعه إلَّا أن يعلم من حاله أنه لا يكرهه، ولا يلح في السؤال إلحاحاً مُضجراً، ويغتنم سؤاله عند طيب نفسه وفراغه، ويتلطف في سؤاله، ويُحسن خطابه، ولا يستحي من

السؤال عما أشكل عليه، بل يستوضحه أكمل استيضاح، فمن رقَّ وجهه رقَّ عمله، ومن رق وجهه عند السؤَال ظهر نقصه عند اجتماع الرجال.

وإذا قال له الأستاذ فهمت؟ فلا يقُلْ: نعم؛ حتى يتَّضح له المقصود إيضاحاً جليًّا؛ لئلَّا يكذب ويفوته الفهم، ولا يستحي من قوله «لم أفهم»؛ لأن استيثاقه يُحَصِّل له مصالح عاجلة وآجلة. فمن العاجلة: حفظ المسألة، وسلامته من كذب ونفاق بإظهاره فهم ما لم يكن فهمه منها، ومنها: وثوق الأُستاذ باعتنائه ورغبته وكمال عقله وورعه وملكه لنفسه وعدم نفاقه. ومن الآجلة: ثبوت الصواب في قلبه دائماً، واعتياده هذه الطريقة المرضية، والأخلاق الرضية.

وعن الخليل بن أحمد: منزلة الجهل بين الحياء والأنفة[1].

وينبغي إذا سمع الأستاذ يقول مسألة أو يحكي حكاية وهو يحفظها: أن يصغي لها إصغاء من لا يحفظها.

وينبغي أن يكون حريصاً عَلَى التعلم، مواظباً له في جميع أوقاته ليلًا ونهاراً حضراً وسفراً، ولا يُذهب من أوقاته شيئاً في غير العلم إلَّا بقدر ما لا بدَّ له منه من أكل ونوم وراحة.

وما أجمل قول الشافعي: حق عَلَى طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار من العلم، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النيَّة لله تعالى في إدراك علمه نصًّا واستنباطاً، والرغبة إلى الله تعالى في العون عليه[1].

---

(١) نقل مقولة الخليل بن أحمد والشافعي: النووي في «المجموع» (١/ ٦٤).

يقال: أجود أوقات الحفظ: الأسحار، ثُمَّ الغداة. وحفظ الليل أنفع من حفظ النهار؛ لفراغ البال، وهدوء الحركة. ووقت الجوع أنفع من وقت الشبع. وأجود أماكن الحفظ الغرف، وكل موضع بعد عن المُلهيات.

ولا يحمد الحفظ بحضرة النَّبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق؛ لأنها تمنع غالباً خلو القلب.

وإذا جفاه الأُستاذ رجع إليه بالاعتذار، وأظهر ندمه وخطأَه، فذلك أنفع له ديناً ودُنيا وأبقى لقلبه.

وقد قالوا: من لم يصبر على ذل التعلم بقي دهرَه في عماية الجهل.

ومن آدابه: الحلم والأناة، وأن تكون همته عالية؛ فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير.

وأن لا يسَوِّف في اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلَّت إذا تمكن منها؛ لأن للتأخير آفات. ولا يُحمِّل نفسه ما لا تطيق مخافة الملل.

وإذا جاء مجلس أستاذه فلم يجده انتظر، ولا يفوِّت درسه.

وإذا وجده نائماً لا يستأذن عليه، بل يصبر حتى يستيقظ، أو ينصرف. والأحسن الصبر كما كان السلف يفعلون.

وينبغي أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب، وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلة الشواغل، قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، فقد قال الشافعي: تَفَقَّه قبل أن ترأس؛ فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقُّه[1].

---

(١) «المجموع» (١/ ٦٥).

ويعتني بتصحيح درسه الذي يحفظه تصحيحاً مُتقناً، ويكرره مرات؛ ليرسخ رسوخاً مُتأكداً، ثُمَّ يراعيه بحيث لا يزال محفوظاً جيِّداً. وليذاكر بمحفوظاته وليدم الفكر فيها.

وينبغي أن يبدأ من دروسه ـ وفي الحفظ، والتكرار، والمطالعة ـ بالأهم فالأهم.

وأول ما يبتدئُ به حفظ القرآن العزيز فهو أهم العلوم، وكان السلف لا يُعلّمون الحديث والفقه إلَّا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالًا يؤَدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان.

وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصراً[1]، ويبدأ بالأهم، **ومن أهمها**: الحديث، والأصول، والنحو، ثم الباقي.

ثم يشتغل باستشراح محفوظاته، ويعتمد من الشيوخ في كل فن أكملهم في الصفات السابقة.

وكلما أتقن مختصراً انتقل إلى أكبرَ منه، مع المطالعة المتقنة والغاية الدائمة المحكمة، وتعليق ما يراه من النفائس والغرائب، وحلِّ المُشكلات مما يراه في المطالعة أو يسمعه من الأستاذ.

ولا يحتقرن فائدة يراها أو يسمعها في أي فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها، ثُمَّ يُواظب عَلَى مطالعة ما كتبه.

---

(١) ليتأمل هذا الترتيب الذي آثرناه عن النووي الآثر له عن علماء القرون الأولى، ولينظر هذه العناية البديعة التي لا يستكثر بعدها أن يأتي منها رجال ملؤوا الدنيا شهرةً وآثاراً اهـ. القاسمي.

وليعتنِ بكل الدروس ويُعلق عليها ما أمكن، فإن عجز اعتنى بالأهم.

وينبغي أن يرشد رفقته وغيرهم من الطلبة إلى مواطن الاشتغال والفائدة، ويذكر لهم ما استفاده على جهة النصيحة والمُذاكرة.

ثمرة ذلك:

قال الإمام النووي إثر ما تقدم: وإذا فعل ما ذكرناه، وتكاملت أهليته، واشتهرت فضيلته: اشتغل بالتصنيف، وجدَّ في الجمع والتأليف؛ مُحققاً كل ما يذكره، ومُبيناً في نقله واستنباطه؛ مُتحرياً لإيضاح العبارات، وبيان المشكلات؛ مُجتنباً العبارات الركيكات، والأدلة الواهيات؛ مستوعباً مُعظم أحكام ذلك الفن، غير مخلٍّ بشيءٍ من أصوله، منبهاً على القواعد؛ فبذلك تظهر له الحقائق، وتنكشف المشكلات، ويطلع على الغوامض، وحل المُعضلات، ويعرف مذاهب العلماء، والراجح من المرجوح، ويرتفع عن الجمود على محض التقليد، ويلتحق بالأئمة المجتهدين أو يقاربهم إن وفَّق الله، وبالله التوفيق. اهـ كلام النووي[1].

❑❑❑

(١) «المجموع» (١/ ٦٧).

آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

ينبغي لكل منهما أن لا يُخلَّ بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال، وأن لا يسأل أحداً تعنُّتاً وتعجيزاً، فالسائل تعنتاً وتعجيزاً لا يستحق جواباً.

وأن يعتني بتحصيل الكتب شراءً واستعارةً، ولْيشتغل بنسخه أو استنساخه إذا كان نفيساً، وليعتنِ بتصحيحه، ولا يرتض الاستعارة مع إمكان تحصيله، فإن استعاره لم يبطئْ به لئلا يفوت الانتفاع به عَلَى صاحبه. ولا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولا يمتنع من إعارته غيره؛ لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل.

روي أنَّ رجلًا قال لأبي العتاهية: أعرني كتابك، قال: إني أكره ذلك. قال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره؟ فأعاره.

ويستحب شكر المعير؛ لإحسانه. وليحذر من الإبطاء بها عن أربابها؛ قال الزهري: إيَّاك وغُلول الكتب ـ يعني حبسها عن أصحابها ـ. وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتها، وأنشدوا في ذلك أشياء كثيرة[1].

❑❑❑

---

(١) «المجموع» (١/ ٦٨).

خاتمة

هذه النُّبذة من آداب المُدرس والدَّارس، أو المعلِّم والمتعلِّم، مختصرةٌ بالنسبة إلى ما جاء فيها وصُنِّفَ في أبوابها، وقد أردت إحياء ما قاله الأئمة المُتقدمون في هذا وتطرية ذكره؛ لما فيه من الفوائد والحكم والنصائح التي هي نتيجة ما أوصي به السَّلف أيام استبحار العلوم ونضارتها في حضارة القرون الأولى، فليحرص المُدَرس والدَّارس عليها، وليحافظ العالم والمتعلِّم على التَّخلق بها والاهتداء بها، فثمرة العلم العمل، وبالله الاستعانة وعليه المُتَّكل[1].

دمشق

جَمَالُ الدِّينِ القَاسِمِيُّ

---

(١) وَأَحْمَدُ الله عَلَى الإِكْمَالِ مُعْتَصِماً بِهِ بِكُلِّ حَالِ
مُصَلِّياً عَلَى نَبِيٍّ قَدْ أَتَمْ مَكَارِمَ الأَخْلاقِ والرُّسْلِ خَتَمْ

كملت، وبحمد الله تعالى تمَّت قراءة هذه الرسالة في مجلسين في صحن المسجد الحرام تجاه الركن اليماني بحضور جمع من أهل العلم وطلَّابه، وهم الإخوة الكرام: الشيخ نظام يعقوبي، وعبد الله بن أحمد التوم، وداود بن يوسف الحرازي اليماني، والسيد علي زين العابدين الحسيني، وأحمد بن عبد الله رستم البحريني، وبفوت: هاني بن عبد العزيز ساب، وكان ذلك في ليلة ٢٤ من رمضان المبارك سنة (١٤٣٠هـ).

وأنا الفقير

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقِّق	٣
ترجمة العلَّامة جمال الدِّين القاسمي	٩

الجزء محقَّقاً

مقدمة المؤلِّف	٢٣
أحكام درس العلوم الشرعية	٢٥
آداب المدرِّس	٢٧
أدبه في تصنيفه	٣٠
آداب تعليمه	٣٢
آداب الدارس (المتعلِّم)	٣٨
آداب يشترك فيها العالِم والمتعلِّم	٤٥
خاتمة	٤٦

❑❑❑